بيرم التونسي

شاعر الحب والشعب

- صديق المجلس البلدي « اللدود »
- حمل هموم الناس وجاع معهم وتضى بالنيابة عنهم
- عمل « صبيًا » لدى العاملين لديه
- ملك الأغنية الشعبية
- كتب لأم كلثوم ٢١ أغنية

عندما ولدته أمه أوصته بالمجلس البلدى، فقا سمه نصف ما يأكل ونصف ما يملك. هوى المجلس سيطر على قلبه وفكره، تغنى به فأنشد قائلا:

قد أوقع القلب فى الأشجان والكمد

هوى حبيب يسمى المجلس البلدى

ما شرد عن جفنى القريع سوى

طيف الخيال.. خيال المجلس البلدى

إذا الرغيف أتى فالنصـــــف آكله

والنصف أجعله للمجلس البلدى

كأن أمـى بـل الله تربتهـــا أوصت

فقالت أخـوك المجلـس البلـــدى

كـم عانـى شاعـر الشـعب بيـرم التونسـى مـن عذابـات وهمـوم وأحـلام، وذاق الظلم وصادق الفقر منذ مولـده وعـرف الجـوع، عانـى التـشرد، والقهـر صنوفاً وألواناً، غريباً فى وطنه، منفياً بين أهله وعشيرته. لم ترهبه قرارات الحكام ولا أسلحة الإنجليز، واجه الجميع بالكلمة التى تحولت إلى كرباج يلهب به ظهور جلاديه. قضى معظم حياته بعيداً عن حضن الوطن منفياً فى تونس وفرنسا وسوريا، كلماته ألهبت المشاعر الوطنية وتغنى بها المحبون، تمايلوا على صوت أم كلثوم وهى تشدو بكلماته، «هوه صحيح الهوى غلاب؟»

كان بيرم التونسى وسيظل شخصية فذة فى تاريخ الفن والوطينة والمعاناة الإنسانية، فقد أحب وطنه وشعبه حباً ملك عليه نفسه، وكانت ضريبة هذا الحب غالية، دفعها بيرم راضياً، التحم بأزجاله بوجدان الناس فعاش في قلوبهم، كان دائماً لسان حالهم غريباً منفياً، أو بينهم.

ثائر فى كُتّاب

دخل بيرم التونسى التاريخ بأزجاله الشعبية. التى ملأت الأسماع والقلوب، وسارت بها ألحان المغنين والمغنيات وقصائده التى تسبق أشهر الشعراء وأكثرهم عصرية.

ولد بيرم التونسى يوم الرابع من مارس (آذار) سنة ١٨٩٣م. فى حارة السيالة فى حى الأنفوشى، أحد أحياء الإسكندرية. والده من أصل تونسى وأسمه الحقيقى محمود محمد مصطفى. وكان والده نساجاً للحرير. ونظراً لأن جده الأكبر الذى ضم تونس إلى الإمبراطورية العثمانية كان اسمه «بيرم» أطلق الأب على ابنه اسم بيرم. ولكثرة تداول هذا الأسم كان أهل الحارة ينادونه «ببيرم التونسى».

كبر محمود وأدخله والده كُتاب الشيخ «جاد الله» الذى كان يحفظهم الحروف بطريقة منغمة كالتواشيح. ومن الكتّاب انتقل إلى مدرسة الرشاد الابتدائية. لكنه ترك المدرسة هرباً من الشيخ رجب مدرس اللغة العربية.

عاشق الأساطير

توفى والده فحل بيرم مكانه فى المحل، وكان يجلس على الكرسى وسط أكداس الحرير. وبدلاً من أن يكون هو صاحب العمل، اتخذه العاملون صبياً لهم، حيث كانوا يرسلونه ليشترى لهم «العيش» والفلافل والدخان المضغ، ثم توفيت والدته، فذهب ليقيم فى بيت خاله، حيث تعرف إلى أحد البنائين الذى حببه فى الإساطير الشعبية. وقرأ قصة «السلك والوابور» وهى محاورة طريفة بين «التلغراف» والقطار، وقرأ «ألف ليلة وليلة» وحكاية سيرة «أبو زيد الهلالى» وغيرها من الأساطير، التى غرق فى بحورها.

وظهر ميله إلى الشعر مبكراً، فقد حفظ الكثير من أبيات الشعر التونسى على يد والدته، وأتقن فن العروض عندما أهداه مدرس تركى كان يسكن فى بيتهم كتاباً عن العروض، فحفظ ١٦ بحراً وفروعها فى ليلة واحدة، وشرح له الأستاذ

«محمد ماهر» التركى معنى قصيدة يخاطب فيها الشاعر الساعة، فنظمها شعراً وأعجب بها المدرس، وكتب الخطاطون القصيدة على لوحات خشبية وباعوها فى الأسواق ونشرها صاحب جريدة المصرى على أنها قصيدة لشاعر عربى قديم.

أخوك المجلس البلدى

تزوج بيرم وعمره ١٧ سنة، ولم يكن قلبه قد عرف الحب بعد. اختار له أقاربه إحدى فتيات الأسرة، وكان فى ذلك الوقت يشتغل فى تجارة العقود، حيث كان يشترى العقود من البورصة ثم يبيعها، لكنه خسر فى هذه التجارة معظم ثروته، التى ورثها عن أبيه، وخوفاً من نفاد ما تبقى له، اشترى له خاله بيتاً ليقيم فيه، وكان موظفو البلدية يقدرون «عوائد» البيت جزافاً، فكان يدفع جميع إيراد البيت مقابل تأجير بعض ـ غرفه ـ للبلدية، فكتب قصيدة يهجو فيها المجلس البلدى.

وذاعت هذه القصيدة فى القطر المصرى، كله، لأنها عبرت عن حال الناس ومتاعبهم من ظلم الضرائب وترجم موظفو البلدية ـ وكانوا كلهم أجانب ـ القصيدة إلى اللغات الأجنبية ونُشرت فى جريدة «الأهالى» وكانت هذه القصيدة بداية حياته الأدبية.

لا جريدة ولا مجلة

قامت ثورة ١٩١٩ وتحمس بيرم لها. ونظم أشعاراً ملتهبة. وكان يطمح إلى تأثير أكثر فى الجماهير، لذلك فكر فى الانتقال إلى القاهرة، وحاول الحصول على ترخيص لإصدار مجلة ورُفض طلبه، فعاد إلى الإسكندرية وأصدر مطبوعة بدون رخصة باسم «المسلة» وكان شعارها «المسلة ـ لا جريدة ولا مجلة».

وعندما شعر «بيرم» بأن الإنجليز ميعوا ثورة ١٩١٩ وأجهضوا أهدافها الوطنية، ووضعوا على العرش الملك فؤاد وأقاموا برلماناً مزيفاً كتب يهجو الملك:

ولما عدمنا بمصر الملوك

جابوك الإنجليز يا فؤاد قعدوك

تمثل على العرش دور الملوك

وفين يلقوا نظيرك ودون

وخلوك تخالط بنات البلاد

على شرط تقطع رقاب العباد

وتنسى زمان وقفتك يا فؤاد

على البنك تشحت شوية زتون

بذلنا ولسه بنبذل نفوس

وقلنا عسى الله يزول الكابوس

ما نابنا إلا عرشك يا تيس التيوس

لا مصر استقلت ولا يحزنون

هاج الملك وأصدر قراراً بنفى بيرم خارج مصر، لكن بيرم كان يتمتع بالحماية الفرنسية فلم ينفذ القرار، واستمر «بيرم» فى تحديه الملك، فعندما تزوج «نازلى» وأنجب فاروق بعد ٤ أشهر من زواجه، كتب زجلاً يهجو فيه فؤاد وشرفه المذبوح فى قصيدة «قلت اسكتوا خلى البنات تتستر مرمر يا زمانى يا زمانى مرمر»، فأصدر قراراً ثانياً بنفيه عن طريق القنصلية الفرنسية.

الأولة آه

اضطر إلى مغادرة البلاد التى أحبها، فذهب إلى تونس، وكان ذلك أواخر سنة ١٩١٩م. اعتبرته الإدارة الفرنسية فى تونس مُحرضاً على الثورة فى المستعمرات فوضع تحت المراقبة، وقبضوا على معارفه وأصدقائه، فأصبح وحيداً، وأخيراً هرب إلى فرنسا بعد أربعة أشهر من الغربة فى بلاد الأجداد.

وصل إلى مدينة ليون الفرنسية وقاسى الكثير بسبب الغربة، حاول أن يعمل ليأكل، لكن العمل محرم على الأجانب، وأمضى شهرا كالصعلوك التائه. وعرف كيف يقاوم البرد بلا ملابس ولا مأوى، وكيف يتحمل الجوع بلا طعام، فلم يكن يأكل أكثر من وجبتين فى الأسبوع.

وجد «بيرم» عملاً فى إحدى شركات المنتجات الكيماوية التى تعمل فى المعادن القذرة والغازات الكيماوية الخانقة، إلا أنه تحمل حتى يدبر أجرة السفر ليهرب من ليون إلى أية مدينة أخرى.

وسافر إلى مرسيليا وأقام فيها خمس سنوات ثم استقر به المقام فى باريس، فأقام فى غرفة فوق سطح بناية. وقد عبر بيرم عن معاناته فى المنفى بقوله:

«الأولة آه

والثانية آه

والثالثة آه

الأولة آه وفى مصر

قالوا تونسى ونفونى

جزات الخير وإحسانى

والثانية تونس

وفيها الأهل جحدونى

وحتى الغير ما وافانى

والثالثة باريس

وفى باريس جهلونى

وأنا موليير زمانى»

كان فى باريس وقلبه فى مصر، ويعيش معاناة شعبه. واتفق بيرم خلال تلك الفترة مع عبد العزيز الصدر، صاحب جريدة «الشباب» التى كانت تصدر فى

مصر على أن يرسل إليه أشعاراً من الزجل ومقالات، على أن يعطى أجره إلى أسرته التى تركها بلا عائل، كما كان يرسل إنتاجه إلى مجلات «العيون» و «الإمام» و «أبوللو» و «النيل».

أعمال شاقة

ظل بيرم يستوحى ذكرياته عن مصر ويكتب عن مشكلاتها وهمومها، وهو الذى ينام بغير طعام، ويقرأ الناس أزجاله فيضحكون وهو يبكى الغربة. وحدثت الأزمة الاقتصادية فى العالم سنة ١٩٣٢م، وبرزت أزمة بطالة بين عمال فرنسا، فأعادت السلطات الفرنسية كل العمال الأجانب إلى بلادهم.

ولم يجد بيرم أمامه إلا العودة إلى تونس واضطر للعمل فى أعمال شاقة حتى يكسب قوته، وأتفق بعد جهد مع صاحب جريدة «الزمان» للعمل لكنه اختلف معه بعد أن تبين له زيف وطنيته. وحصل بيرم على ترخيص بإصدار مجلة «الشباب» التى انتشرت وذاعت بين التونسيين وأصبحت تُقرأ من تونس حتى الدار البيضاء.

ونشر فى العدد الخامس عشر من المجلة قصيدة لشاعر جزائرى يهاجم فيها فرنسا وسياسة تحويل العرب إلى أوروبيين. ونشر بيرم نفسه قصيدة اسمها «الصمت» تدور حول المعانى ذاتها، فأصدرت السلطات قراراً بإغلاقها وحرمان بيرم من الكتابة فى الصحف التونسية. ثم صدر أمر بنفيه إلى السنغال وعدل القرار بناء على طلب بيرم بالنفى إلى سوريا، التى أقام فيها أكثر من عام متخفياً حتى أخرجته السلطات الفرنسية بعد أن تجاوز المدة المقررة للإقامة هناك.

العودة إلى الوطن

خرج من سوريا متجهاً إلى مرسيليا، وكان ذلك سنة ١٩٣٨م، وكان الشوق إلى مصر قد استبد به، فقرر إما أن يعود إلى الأهل والأحباب، وإما أن يتخلص من نار الغربة بالانتحار.

كانت هذه الأفكار تموج فى رأسه، وتثور معها عواطف الشوق والحنين. عندما وقفت الباخرة دون سابق موعد فى ميناء بور سعيد لم يصدق بيرم ما رأى فرقص قلبه فرحا، فها هو الحلم على وشك أن يتحقق، ولمح أحد «البمبوطية» (الباعة الذين يزودون البحارة بما يحتاجون من مؤن البر). فقال له: «أنا مصرى ومنفى منذ زمن طويل، وأريد أن أرى أهلى وبلدى. رق قلب الرجل لحاله. وساعده على الهرب، وما أن ابتعد عن السفينة حتى جرى إلى المحطة وركب القطار ووصل إلى القاهرة بعد ٢٠ سنة فى المنفى.

أذاع راديو القاهرة نبأ هروب بيرم من الباخرة، وكان لا يغادر البيت إلا فى المساء ليجلس على مقاهى شارع عماد الدين، ولم يكن أحد يعرفه إلا بائع اليانصيب، الذى كان يعتقد أنه «خواجا» إلا أن أمره اكتشف، وتدخل الأصدقاء للحصول له على العفو من القصر. وسعى الشيخ زكريا أحمد وسليمان نجيب مدير الأوبرا، لدى مدير الديوان الملكى. أحمد حسنين باشا فصدر عفو القصر عن «بيرم».

وتوسط كامل الشناوى لدى أنطون الجميل رئيس تحرير جريدة الأهرام لينشر «لبيرم» زجل العودة فى صدر الجريدة.

وسام الفنون

عمل بيرم فترة بعد العفو فى كتابة الأزجال الإعلانية لشركات بلجيكية مدة عام مقابل ٢٠ جنيهاً، وكان يكتب فى مجلة روز اليوسف وصحف الأهرام والأخبار وأخبار اليوم والمصرى والجمهورية.

وقامت ثورة يوليو ١٩٥٢م. وحدثت جفوة بين بيرم والقيادة الجديدة، لأنه كان من محبى الملك فاروق. لكن مواقف بيرم الثورية، ونضاله الدائم ضد المستعمر والحكم المستبد قربته مرة أخرى من النظام الجديد، وسرعان ما انصهر شاعر الشعب فى بوتقة الثورة وليعبّر عن آمال أبناء مصر.

وعاش بيرم باقى أيام حياته بشكل كريم يليق بمكانته وجهاده وكفاحه. ورفض، رغم المغريات، أن يترك بيته، الذى كان يقيم فيه فى حى السيدة زينب، إلى أن توفاه الله سبحانه وتعالى يوم ٥ يناير سنة ١٩٦١م. وقبل موته منحته الحكومة المصرية وسام الفنون والآداب فى السنة نفسها وتم إطلاق إسمه على شارع «سكة المدبح» الذي كان يسكن فيه.

القلب الكبير

لم يحب بيرم، الذي كتب عن الحب أجمل الكلمات امرأة في حياته، ولكنه لم يكن يكره النساء. وكان يقول: «أحب نساء الدنيا جميعاً. يعجبني الجمال، ويفتنني الدلال. ومع هذا لم أحب امرأة في حياتي، فقد شغلتني الحياة وكفاحها عن الحب، إلا أنني أعرف الحب بآهاته ودموعه وتنهداته، وأعرف الهجران والتعذيب».

وعاش «بيرم» مع النجوم من رجالات الأدب والفكر فكان نجماً بينهم. وقال عنه أمير الشعراء أحمد شوقي: «لا أخشى على الشعر العربي طغيان أحد أو شيء إلا بيرم وأدبه الشعبي».

وكتب عباس محمود العقاد، وهو شديد العداء لكل ما يُكتب بالعامية، عن أشعار بيرم: «الزمان ضنين بأمثال هذه العبقرية، وهو لا ينفق منها بغير حساب، وكانت آية الآيات فى بيرم أنه يفهم السريرة الناطقة بالعربية فى بواطنها الخفية قبل أن يحكيها بلهجاتها الكثيرة على الألسنة والأقلام، فهو قادر على إبداع الحوار بكل لهجة ينطق بها اللسان العربى، من ساحل الأطلسى إلى شط العرب، ومايليهما من أطراف وأنحاء».

فصاحة وبلاغة

وقال عنه عميد الأدب العربى طه حسين «كنت ولا أزال، من أشد الحاملين على اللغة العامية دفاعاً عن اللغة الفصحى، لكن أزجال بيرم تجذبنى إليها،

وتغتصب إعجابى اغتصاباً، بما امتازت به من فصاحة وبلاغة فى ألفاظها ومعانيها».

وكتب توفيق الحكيم: «إذا كان بيرم من أصل تونسى، فمن العجيب أن يتقمص روح الشعب المصرى بشكل يندر أن تجده فى مصرى صميم، فإما أن تكون روح مصر من القوة، بحيث تطبع بطابعها الخالد من يأتى إليها ويعيش فيها بحب صادق وعميق، وإما أن يكون بيرم التونسى من أولئك الموهوبين الذى تنعكس فى قلوبهم صورة الشعب الذى يحتويهم. وما من شك فى أن بيرم قد جمع فى أدبه بين الأمرين».

وكتب يحيى حقى: «حينما نقرأ بيرم نشعر بأنه كان يتمنى أن يغمض عينيه ويفتحهما فيجد مصر فى مصاف الدول الراقية. لا من حيث الثورة فحسب، ولكن من حيث الذوق والفن أيضاً، لم يحارب أحد الدمامة المادية والخلقيَّة كما حاربها بيرم التونسى».

أغنية بلا دموع

لم يقتصر إبداع بيرم على الشعر والزجل، بل كتب الأوبريتات والمسرحيات، ومن ذلك أوبريت «شهرزاد» ذو الخمسة عشر لحناً، الذى لحنه سيد درويش وأخرجه عزيز عيد. وكتب مسرحية «عقيلة» ومسرحية «قسمت» أو ألف ليلة وليلة، كما كتب أغنيات مسرحية «الست هدى» التى ألفها أمير الشعراء أحمد شوقى.

كان بيرم يحفظ من الشعر ٢٠ ألف بيت وحمل لقب «ملك الأغنية الشعبية» وكتب لأم كلثوم ٢١ أغنية فى ١٨ سنة، أولاها: «اللى فى الدنيا أنا وأنت، وآخرها «هو صحيح»، وغنى له عبد الوهاب أغنية واحدة هى: «محلاها عيشة الفلاح» لقد كان بيرم أغنية عذبة بلا دموع، ولا آهات، وعاش حياته كلها يؤلفها ولم يسمعها، وعندما مات، وعتها أسماع الملايين.